الإحـــراق، الـــســرّاق، الـــتـــدويـــن، فـــلـــســـطـــين، وأمـــور أخـــرى

□ إلياس الماجري

ألاّ يحملنا التفكيرُ في ما قام به محمد البوعزيزي على استحضار «الفنّ الجسمانيّ» (البادي آرت)؟

فنّانو هذا النوع (أمثال ميشال جورنياك وجينا بين) كانُوا يحتلّون الساحات والشوارع لتعذيب أجسامهم وتشويهها وجرحِها ووخزِها، على مرأًى من المارّة وعابري السبيل. وكانت نصوصُهم النظريّة كثيرًا ما تُحيل على قصّة المسيح وواقعةِ صلبه وعذاباته أمام الجماهير. إنّ قراءة مجموعة البادي آرت لرمزيّات آلام المسيح تُفيد بأنّ آلام الجسم هي أكثرُ ما نستطيع إيصالَه إلى الآخر، أو لعلّها أداةُ التواصل بامتياز. إنّ الجسد، بتألُّه، قد يُفصح عمّا يعجز عنه ألفُ نصّ مستغيث.

إنّ ما يدعونا إلى استحضار هذا التيّار الفنّيّ عند الحديث عن البوعزيزي ليس مفهوم التواصل عبر وجع الجسد فقط، ولا توظيف الجسد للإفصاح بدلاً من الكلام فحسب، بل دلالة المكان أيضًا. فما معنى أن يختار الفنّانُ الشارعَ بدلاً من قاعةٍ مُغلقةٍ لعرض إبداعه؟ لعلّنا نستطيع اليوم، بتطوّر المقولات الفلسفيّة ونصوص أنطونيو نيغري ومايكل هاردت وفتحي المسكيني، أن ندرك دوافع الانشغال بالشارع واختياره مكانًا أوْلى باستيعاب الخلق. فاقتحامُ الفنّ للشارع نقدٌ صريحٌ لمفهوم «العامّ» (الطريق العامّ)، ولمفهوم «الخاصّ» أيضًا، عبر ما هو «مُشترك.» وها إنّ الجسد، الذي لم نكن نرى منه غيرَ «ملْكيّةٍ خاصّةٍ» تنضبط في الغالب لقوانين الدولة وتشريعاتها، قد صار مشتركًا، وجعًا تتناقله الجماعاتُ، ويَعْبر سريعًا كالوميض. ولم يعد الشهيد يسكن الضمائر فحسب، بل بات يُسائل الألبابَ ويناقش المفاهيمَ. ومن هنا نُسمّي عملَ البوعزيزي: «الواقعة الإستاطيقيّة.»

❖❖❖

تهافت الإعلامُ الرسميّ والأجنبيّ على توصيف الثورة التونسيّة وتسميتها. لنجزمْ بدءًا أنّها ليست «ثورة الخبز» ولا «الجائعين» أو «المضطهدين،» ولا هي حتمًا «ثورة الياسمين.» إنها ثورة النخوة والكرامة. إنّ إصرار العامّة على هذه التسمية إصرارٌ واضحٌ على الجانب الإيطيقيّ للثورة، وتشبثٌ بمبادئها الأصليّة. فمحمد البوعزيزي اصطبر على البطالة، وتحمّل الخصاصة، ورضيَ أن يعمل بائعًا متجوّلاً بالرغم من حيازته شهادةً عليا... ولكنه أقدم على إحراق نفسه حين صفعتْه إحدى المسؤولات الحكوميّات في مقرّ الولاية. لقد كان الاحتراقُ ردَّ النفس الكريمة المكابرة الأبيّة. أما إصرار وسائل الإعلام والأقلام المأجورة على غير ذلك فإصرارٌ غيرُ بريء على تجريد هذه الثورة الاجتماعيّة من معانيها وعزلها عن مكمونها الأخلاقيّ العميق. ليست هذه الثورةُ ثورةَ رعاع، بل ثورة عظماء. وكما فيها الخلقُ والابتكار، فإنّ فيها من العزّة والكرامة لمآثرَ وعِبرًا لكلّ الجماهير في شتّى أصقاع العالم.

❖❖❖

كان الشعار الذي انطلقتْ منه الثورة واكتست به مشروعيّتها هو «التشغيل استحقاقْ يا عصابة السرّاقْ.» ولكنْ مَن هي بالضبط عصابةُ السرّاق؟ أين تبتدئ وأين تنتهي؟

لا تقتصر عصابة السُّرّاق على بن عليّ وعائلته وأنسابه، بل تتجاوزهم إلى كلّ حلفائهم ممّن نهبوا ثرواتِ البلاد: شركاتٍ متعدّدةَ الجنسيّات، ومُستثمرين أجانب، وقوًى خارجيّةً تهيمن على السوق فتسطّر الخطوطَ العريضةَ لاقتصاد الدولة. الإجماع واضح لدى الجماهير التونسيّة على أنّ الخلل لا يكمن في الرئيس المخلوع وذويه وحدهم، بل في سياسة اقتصاديّة تابعة وعميلة أقصت السوادَ الأعظمَ من المجتمع وأسقطتْه عن برامجها التنمويّة، حتّى صار يحلو للبعض تشبيهُ تونس بالبلد الذي لا يروق إلاّ للأجنبيّ. إنّ شعار «السرّاق» شاملٌ وراديكاليٌّ في إدانته، إذ يُسقط ورقةَ التوت عن نظام اقتصاديّ عالميّ كامل، ويفضح وحشيّة الإمبرياليّة. أوَليس تهميشُ أهالي سيدي بوزيد والقصرين وتالة شرطًا من شروط تغلغل العولمة، وتواصل الخوصصة، وانتعاش رؤوس الأموال الأجنبيّة؟

إنّ عصابة السرّاق تبدأ من قرطاج وتنتهي في تل أبيب ومانهاتن. ونحن لم ننتظر طويلاً حتى يأتينا اليقين، إذ سرعان ما انطلقتْ مظاهراتٌ في إسرائيل تساند الرئيسَ المخلوع، وعجّلتْ واشنطن في الائتلاف مع «مُقرَّبيها» لتشكيل حكومة موقّتة (موقوتة) في وقت قياسيّ.

هذا ما استوعبتْه الجماهيرُ، ولم يستوعبه الكثيرُ من «النخب السياسيّة.» الجماهير صارت أكثر حزمًا وصرامةً وراديكاليّةً من الأحزاب والمنظّمات

الجماهير اقتحمتْ عهد المقاومة، وما زالت «النّخب» تسعى نحو المراكمة

والجمعيّات الحقوقيّة. ولعلَّ أبلغ مثال على ذلك هو الشعار الذي ردّدتْه الجماهير أثناء مسيراتها: «اعتصامْ اعتصامْ حتى يَسقط النظامْ.» الجماهير تجاوزتْ مطالبَ «التداول السلميّ على السلطة» ومطالب «الحريّات» و«الديمقراطيّات» وأطاحت بالنظام. الجماهير تخلَّصتْ من كلّ فهم عموديّ للسلطة، وأضحت لا ترى تصريفًا آخر لشؤون حياتها غيرَ الفهم الأفقيّ. لقد أضحى جليًا أنّها تلقي اليوم بأبصارها إلى ما هو أبعد من أفق الحكومات، والانتخاب، والتمثيل، والدولة الحقوقيّة، وغير ذلك ممّا يمثّل أقصى ما تصبو إليه أحزابُ المعارضة. الجماهير اقتحمتْ عهد المقاومة، وما زالت «النُّخب» تسعى نحو المراكمة.

❖❖❖

أثبتت الجماهيرُ من خلال هذه الثورة أنَّ عصر الإنترنت هو عصر الديمقراطيّة بامتياز، عصرُ الإعلام الموازي، عصرُ المعلومة المُفلتة. وقد تنبّهت السلطة وحلفاؤها في أمريكا وإسرائيل وفرنسا إلى هذا الأمر من قبل، وزرعوا في الفايسبوك وغيرِه من المواقع الاجتماعيّة «ميليشياتٍ» وشبكاتٍ لا ترمي إلى الدفاع عن شرعيّة السلطة فحسب، بل إلى بثّ أشباه النقاشات والإشكالات الكاذبة أيضًا حول الرجعيّة والهويّة والعرقيّة واللغة من أجل صرف الشبيبة عن مشاكلها الحقيقيّة وإدماجها في جدلٍ عقيمٍ ومصطنع لكنّ تلك الإجراءات لم تكن لتئد العاصفة

إنّنا، إذ نقول إنّ عصر الإنترنت عصرُ الديمقراطيّة الأفقيّة (لا العموديّة المبنيّة على الانتخاب والنُّخب)، فإننا نعني بذلك أنّه عصر «المصطَّحات» إذا ما اقتبسنا مفهومَ جيل دولوز وفيليكس غاتاري. هو عهدٌ بشيرٌ للجماهير، ونذيرٌ للسلطات القائمة على ثنائيّة «المراقبة والمعاقبة.» ولا خيارٍ أمام هذه السلطات الآن غير أن تعيد قراءتها للمجتمع ولجهاز الحكم؛ فهي اليوم في مأزقٍ لا خلاصَ لها منه باديًا في الأفق. أقول هذا أيضًا ردًا على الحكومة «الموقوتة» التي عيَّنتْ «بطلاً فيسبوكيًا» ليشْغل منصبَ كاتب دولة لدى وزارة الشباب، وكذلك ردًا على القنوات التلفزيّة التونسيّة التي انطلقتْ بعيْد هروب بن عليّ إلى دعوة بعض المُقرّبين إليها من «المناضلين الافتراضيين» الفايسبوكيين إلى حصص وبرامجَ تزعم أنّها تحلّل أطوارَ الثورة وتوهم المُتفرِّج بأنها مُعدَّةٌ لـ «تكريم» صانعي الملحمة الافتراضيّة. لكنّ الجماهير اليوم تعلم أنَّ عصر الإنترنت ليس عصرَ قياداتٍ أو أيّ شكلٍ قديمٍ من الأشكال الهرميّة للجماعات، وبالتالي فإنّ النشاط الإعلاميّ على الفايسبوك لا يحتاج (بل لا يَحتمل) هيكلةً عموديّةً وزعاماتٍ وناطقين رسميين. وإنّ كل محاولةٍ لمأسسة النشاط الافتراضيّ محاولةٌ «بوليسيّة» للحدّ من التداعي المعلوماتيّ الحرّ، أو لإغلاق حنفيّة المعلومات الهدّارة التي نرتوي منها كلّنا في زمنِ التزييف الإعلاميّ المُوجَّه. وللتذكير، فإنّ الڤيديوات التي غطّت

المقاومة الاجتماعيّة في سيدي بوزيد والقصرين والرقاب وتالة والمزّونة وبو عون كانت مصوَّرة بهواتف أهالي هذه المناطق، وانتشرت انتشار النار في الهشيم بعد أن حمّلوها بأنفسهم على الفيسبوك؛ وهي الفيديوات عينُها التي استخدمتْها قناةُ الجزيرة في تغطية الثورة منذ اندلاعها. وبالتالي فإنّ أيًا من المدوّنين لا يحقُّ له أن ينسب إلى نفسه دور «البطولة الافتراضيّة.»

إنّ زمنَ المدوّنات والصفحات الاجتماعيّة لا بطولة شخصيّة فيه ولا قيادة. وقد أثبتتْ هذه الثورة أننا نعيش عصرَ الجماهير، لا عصرَ الشخوص. وفي المقابل، فاجأتنا القنواتُ التلفزيّة الرسميّة في تونس بعد الثورة بتغيير الوجوه وتدعيم المشهد بنساءٍ حسناوات، عوض أن تتغلغل في جهات الوسط والجنوب والشمال الغربيّ والشرقيّ لتُسند المِصْدح [الميكروفون] إلى من ظلّوا مقصيّين منه أكثر من خمسين سنة. هذا المشهد المليء بالنفاق يُذكّرنا بمقولة السينمائيّ السويسريّ جان لوك غودار. من فيلم «تأريخ السينما»: «العذاب ليس نجمًا، إذ لا يظهرُ أبدًا في صورةٍ مكبَّرة.»

❖❖❖

اليوم، إذ نُتابع عن كثبٍ ثورةَ الجماهير المصريّة وغيرها، فإننا لا نرى فيها تواصلاً لِما شرعتْ فيه جماهيرُ تونس فحسب، بل نرى فيها حتميّة إستراتيجيّة للحفاظ على ثورتنا كذلك. إنّ مُخلِّصنا الوحيد، ربّما، من تركيز الجهات الأجنبيّة على بلادنا يمرّ عبر توسّع الثورة وانتشارها في كلّ بلد عربيّ حتّى ليستعصي على الدخلاء حصرُها أو تطويقُها. نعم، ما أحوجَنا اليومَ إلى نضالات كلّ الجماهير العربيّة حتى لا تنحصرَ تونس! وما أحوجَنا إلى الجماهير الفلسطينيّة في غزّة والضفة، بل داخل الخطّ الأخضر أيضًا، لاستغلال رياح الحريّة والاستبسال من أجل إطلاق انتفاضةٍ جديدةٍ، لا ضدّ الاحتلال الصهيونيّ وحده بل كذلك ضدّ قيادات «فتح» ورموزها الحاليّة المرفوضة شعبيًا.

ما تخشاه الديبلوماسيّاتُ الأجنبيّة هو أن تصير بلدانُنا ذاتَ سيادة، تعبّر عن قضاياها بحريّة ومن منطلق قناعاتها الوطنيّة والثقافيّة. ولذلك تسعى هاته الديبلوماسيّاتُ إلى الركوب سريعًا على الأحداث لفرض حكومةٍ مواليةٍ لها. فمعنى أن نكون ذوي سيادة هو أن نفرض سياسة اقتصاديّة وطنيّة لا تهمِّش أصحابَ البلاد كي تخدم الأسيادَ الأجانب؛ ويعني أيضًا أن نكون فخورين بثقافتنا نسعى لتطويرها وتحيينها؛ ويعني أيضًا أن نقول «لا» واضحة وصريحة في وجه الاحتلال الإسرائيليّ لفلسطين.

لقد تحققت الثورة، ويبدأ اليوم النضالُ الاجتماعيّ لحماية مكاسب الثورة، الإيطيقيّة منها والماديّة.

تونس

إلياس الماجري

فنان تشكيليّ، وشاعر، من تونس.